أغلق اطبع

www.nowlebanon.com

روائع الكنائس الأرمينيّة اللبنانيّة في كتاب.. لرافي جرجيان

منصور بو داغر

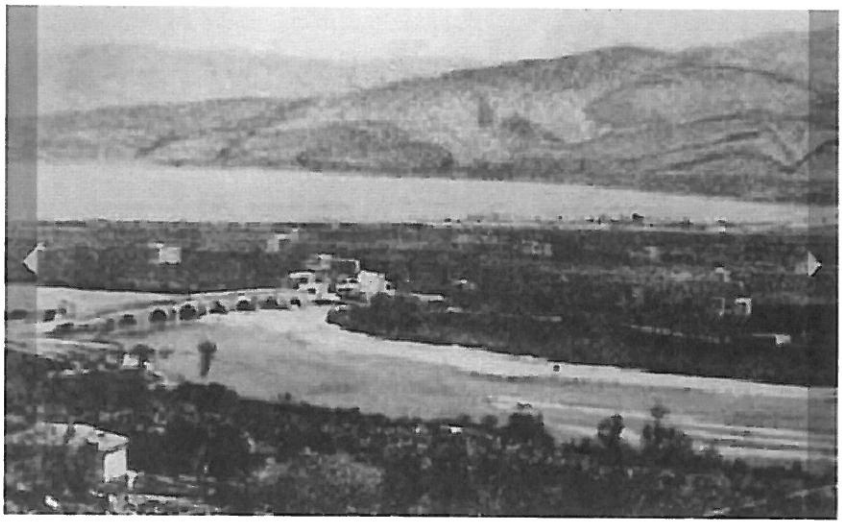

برج حمود 1900

قيل كلّ شيء ابتداءً من صورة الغلاف. كتاب كان يمكن أن يقتصر على صورة غلافه. صورة جبل "آرارات" في أرمينيا حيث يمكن مشاهدة كنيسة أرمينية في السهل... خط أحمر رفيع يقسم الصورة التي تستكملها تضاريس سلسلة جبال لبنان الغربية؛ نراها من سهل البقاع.. مع كنيسة أرمينية أخرى وكأني بالصورة الثانية هي انعكاس على المرآة للصورة الأولى. هل يا ترى قوافل أحياء مجازر الارمن الذين وقفوا لأول مرة في سهل البقاع، كانوا امام مشهد انطبع في ذاكرتهم الجماعية، حتى إذا ما أرادوا أن يبنوا كنيسة، جاءت طبق الاصل للكليشه، (negative)، للمشهد الاول (أو ما يُعرف بالـarchétype)، أنموذج، أو "إستحضارية"؟ (ملاحظة: لم يحصل أي تلاعب بالصورة).

تمرين آخر أراده الكاتب: عنوان الكتاب. العنوان جاء كـ"دال" ليؤكد بأن الطائفة الأرمينية ليست بالطارئة في لبنان.. لا كما نعتقد بأنّ تواجدها هو فقط بُعيد مجازر 1915؛ بل يعود الى القرن السابع عشر أقله. لم يستعمل الكاتب في العنوان (بالفرنسية)، "au Liban" (في لبنان)، بل "du Liban"، فأتى العنوان بالعربيّة: "الكنائس الأرمينيّة للبنان" أو "كنائس لبنان الأرمينيّة"، بمعنى اللبنانيّة (Les Eglises Arméniennes Du Liban)، والتي أصبحت ههنا جزءاً لا يتجزأ من الـ"موزاييك" الاجتماعي والديني والثقافي اللبناني.

الكتاب هو الجزء الثاني من سلسلة "المساحة الدينيّة للبنان" (Espaces Religieux Du Liban)، من إصدار ونشر كليّة العلوم الدينيّة في جامعة القديس يوسف.

الكاتب مهندس وعالم آثار، مصوّر محترف ومرمّم فنيّات. رافي جرجيان ببساطة أراد أن يضع بين أيدينا نوعًا من جردة، أن ينقل لنا "مشاهد" كنائس وأديرة ومعالم دينيّة على امتداد مساحة الوطن، هندسة وتصاميم ورموز نقلت إلينا حضارة وثقافة ولاهوت وليتورجيا شعب ازدانت بمعالمه الدينيّة بلاد الأرز منذ أن قرّرت يومًا عائلة الخازن في القرن السابع إعطاءهم قطعة أرض ليبنوا عليها أولى أديرتهم، وقد وُجدوا في جبل لبنان قبلة حريّة وأمان وهم المضطهدون منذ ذلك الوقت.

فصول الكتاب تجمع، في إطار سردها للمعالم الدينيّة للطوائف الأرمينيّة الثلاثة في لبنان، بين العودة إلى الجذور وكشف الرموز وتوضيح التطوّرات الطارئة على الهندسة الدينيّة الأرمينيّة في لبنان، ولتنتهي بأطلس يسرد مواقع المعالم الدينيّة الكاملة للأرمن بمختلف طوائفهم مع شرح لكلّ منها.

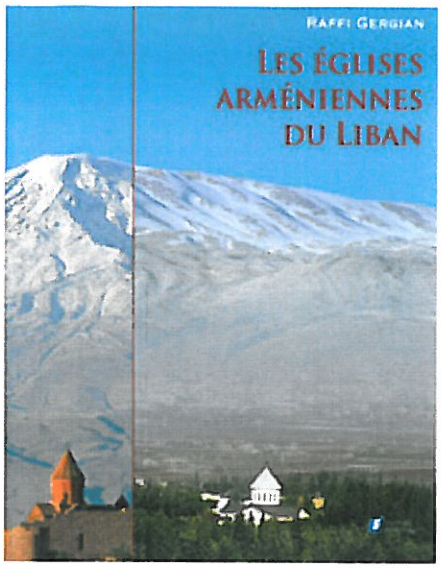

في فصله الأوّل يعود جرجيان إلى **الأصل أي أرارات في أرمينيا**. قد يسأل البعض ما علاقة ذلك بلبنان والأرمن اللبنانيين هم أساسًا من كيليكيا ومرتبطين بتلك المنطقة الواقعة في تركيا. ولكن وفق جرجيان علينا أن نسأل: على أيّ قاعدة سيتم بناء كنيسة اليوم أو ترميمها إذا لم نعرف ما هو الأصل –أي أنموذج الاصل- الذي يجب الاستناد إليه والمقارنة معه (؟) طبعًا كل ذلك بهدف الحفاظ على هويّة البناء وكي لا يحصل "ميتامورفوز" (تعديل) في هندسته وتركيبته. وعلى هذا الأساس، فإنّ أوّل انطلاقة هي معرفة (تحديد) المبنى وتاليًا معرفة تاريخه ووظائفه الأساسيّة على ضوء إرث القرن الثالث، حيث منذ أكثر من 1700 سنة كانت أرمينيا أوّل دولة في العالم اعتنقت الديانة المسيحيّة وكان ذلك عام 301 بعد الميلاد.

إذًا أوّل كنيسة تمّ بناؤها كانت في أرمينيا والأساس كان في أرارات وهو رمز لكل الأرمن في العالم. في المقابل، يكشف جرجيان أنّ أقدم دير في لبنان للأرمن هو دير المخلّص في الكريم في منطقة غوسطا والذي بدأ بناؤه عام 1723 وأضيف عليه كنيسة ضخمة عام 1726. كما أنّ هناك أديرة قديمة أيضًا في بيت خشباو في غزير ومن ثمّ في بزمار. والدير وإن كان متواضعًا من الخارج إنّما في الداخل فهو عالم آخر "نفيس".

من جهة أخرى، أفرد جرجيان فصلاً عن **علاقة الهندسة مع الطقس الأرميني الديني**، وذلك كون الكنيسة الأرمينيّة ليست فقط عبارة عن هندسة معماريّة وإلا لكانت تغيّرت عمارتها ولم يستمر مثلاً بناء القبّة فيها تمامًا كما صمّمت قديمًا ولا النوافذ وغيرها. هذا ما يدل على أنّ هناك ما هو أبعد من البناء، فالهندسة تخضع لتفسير ديني ورمزي ولها علاقة بالطقوس. يقول جريجان في هذا الموضوع: "هذا الأمر ألزمني بتفسير معاني وماهية هذه الأشكال الهندسيّة وأبعادها أو أسباب استمرارها" (وقد أفرد لها فصلاً مستقلاً). وأضاف: "في الداخل فسّرت كيفيّة التعاطي مع أو كيفيّة إدارة المساحة كالمذبح الذي نراه كبيرًا وواسعًا ومرتفعًا ويكون وجه الكاهن باتجاهه لا إلى الجماعة؛ وفي الوقت عينه كان علي تبيان خاصيّة كلٍّ من الطوائف الثلاثة الأرثوذوكسيّة والكاثوليكيّة والبروتستانتيّة (ما يفرّقها من الناحية الهندسيّة)، ناهيك عن رموز عديدة قمت بتفسيرها كلّها كأن تكون وجهة الكنيسة دائمًا نحو الشرق ومدخلها من الغرب (أنظر رمز النور-الشرق والذي يشير إلى يسوع، والذي نعبر باتجاهه، من الغرب والظلمة، نحو النور، إلى الشرق... أو وجود 13 قنديلاً على المذبح واحد منها مُضاء يرمز إلى المسيح والباقون يرمزون إلى الرسل.. وحرف الـ"هاء" الذي يعني "هو موجود دائمًا" باللغة الأرمينيّة، الخ.). كما أشار الكاتب إلى أنّ "تفسير هذه الرموز يكتسب أهميّة كبيرة اليوم كونه هناك نوع من الفوضى في بناء الكنائس بشكل لا يحترم هذه الرموز على غرار مثلاً مسألة إدخال القرميد على كنيسة أرمينية في وسط المدينة، وسبب ذلك كان وقتها أنّ الأبنية المحيطة بها سقفها قرميد، وإن جاء هذا الأمر إيجابيًا أحيانًا بمعنى أنّه يؤسّس لتبادل ثقافي".

الكاتب رافي جرجيان

وبالنسبة إلى **خلاصات هذه الدراسة**، يؤكّد جرجيان فيها أنّ "الكنيسة الأرمينيّة تمكّنت من المحافظة على هويّتها الأصليّة في لبنان، ولكن في إطار هذا التطوّر وقع فراغ معيّن، فحضارة أرمينيا وأرارات تحديدًا منعزلة كونها جبليّة (أرمينيا)، في حين أنّ حضارة كيليكيا (تركيا) الموجودة على البحر المتوسّط نجد فيها انفتاحًا على الحضارات الشرقيّة والغربيّة كونها ممر يربط بين الشرق والغرب، ولذا حصل تطوّر على الكنيسة الأرمينيّة في كيليكيا قبل وصولها إلى لبنان، إلا أننا لا نعلم بعد الشيء الكثير عن هذا التطوّر نظرًا لصعوبة إجراء الدراسات بشأن الكنائس في تركيا والذهاب حتى إليها.

ويعتبر جرجيان أن الكنيسة الارمينية قد وصلت اليوم إلى "شكلها النهائي"، بعد مرورها بعدة مراحل. في البداية، الأهالي وبجهودهم الشخصيّة كانوا يبنون الكنائس ولم يكن هناك من تبرّعات أو طوائف تقدّم أموالاً، إنّما مشاركة من قبل الجميع فنرى أنّ كل قسم فيها أنجزه أشخاص معيّنون فحمل اسمهم، وهذا أشبه بالعونة في القرى اللبنانية الجبلية. ولهذا السبب استغرق التطوّر فترة طويلة، والكنائس التي بنيت بأغلبيّتها الساحقة في البدء بواسطة الخشب، إما ردمت وأعيد بناؤها بالحجر أو تمّ ترميمها. على صعيد آخر، يؤكّد أنّه وفق ما نعلمه فإنّ الأرمن الذين هربوا من المجازر عادوا واجتمعوا هم أنفسهم في الأحياء

اللبنانيّة ضمن تجمّعات تسمى (compatriotiques)، ففي برج حمود نجد أسماء قرى وأحياء موجودة في كيليكيا، وقد نقلوها معهم.

في الـ**"Making of" الكتاب**، وتحديدًا في القسم الأخير منه (والمخصّص للمواقع الدينيّة الـ52 الخاصة بالطوائف الأرمينيّة على اختلافها)، يشرح جرجيان عن خريطة الطريق التي أُعتمدت في العمل: "جردة مادية على الارض - أطلس الأماكن الدينيّة -حيث تم وضع دراسة عن كل أماكن العبادة في لبنان ولمختلف الطوائف، وقد شملت فيما شملت هذه الأعمال (على الأرض)، جردة للمواقع الدينيّة بواسطة ورقة خاصة (Fiche) لكل منها؛ فمثلاً عن "مزار" ما: يتم تحديد مكانه، وعلى اسم أي "شفيع" (قديس)، ونسبة الـ"مزارات" لقديس ما في منطقة معيّنة ومقارنتها مع غيرها من المناطق"... بعدها، يُصار الى وضع دراسات "monographie" عن كل المواضيع التي تخص أماكن العبادة.

...وكان الكتاب، نتيجة جاءت مبهرة، فصل من الذاكرة للأجيال القادمة، فخر واعتزاز بالماضي الحاضر أبدًا، أمل في المستقبل، حاشى أن يكون بكاء أو وقفة على الأطلال. وهو يبقى مرجعًا للباحثين والاكاديمين، خاصة الذين يعنون بالتاريخ الأرميني واللبناني، وبالهندسة الدينيّة، وبالتراث وطبعًا بالإرث اللاهوتي والليتورجي.